أشعيا النبيُّ
أديب مُبدِعٌ ومُرسَلٌ غيور

الأب أيوب شهوان

أشعيا النبي المرسَل

من قراءة سفر أشعيا وحسب، تتدفّق الأفكار لدى القارئ المُحبّ لأمير الأنبياء، وتتزاحم الصور والرموز في مخيّلته حتى تخلب منه العقل، وتحرّك فيه المشاعر، وتلهب فيه القلب، لأنّ هذا النبيَّ، "ملاكَ" (מלאך، "مَلأَخ"، أي "مُرْسَل") الربِّ، الذي حَمِل رسالة إلهِ السماءِ إلى بني الأرض، كان خَلاّقًا حتى الإبداع في ما حَرَّرَ من نبوءات. إنه إشعيا (ישעיהו، "يْشَعْيَهُو")، أي: "الربّ يخلّص"؛ هو اسمه، لا بل قُلْ: هي رسالته المخبوءة في اسمه، والمعلنة من خلاله برنامجًا خلاصيًا. لقد وُفِّق القديس إيرونيموس عندما دعاه "أوّلَ الإنجيليّين"، خاصة في ما أبدعت يُمنى هذا النبيّ حول "العمّانوئيل"، وحول "عبد يهوه المتألّم"، وغيرهما.

إنّه المُصغي بانتباهٍ لكلمة الله، والذي يُعنى في أن يحملها عاليًا وبقوّة، مناديًا بها على الروابي ورؤوس الجبال، في الساحات وعلى الطرقات، حتى تبلغ الجميع، فلا يبقى عذرٌ ولا حجّة لمتخاذلٍ أو متهرّب أو متقاعس. إنّ قراءة روائع أشعيا هي فرصة ثمينة لاكتشاف لاهوت ذاك العصر، لاهوت مرحلة من تاريخ الخلاص، الذي أصبح لاهوتَ معظم المراحل، إن لم نَقُلْ كلّها، كما أيضًا للدخول في علاقة وصداقة، لا بل في حلفٍ مع هذا العظيم بين مواليد النساء.

أشعيا يلتزم قضايا شعبه

نعم، لقد كدّس لنا أشعيا في أهرائه فيضًا من الخيرات المُحيِيَة، التي تبقى في النهاية جودًا من الربّ الحنّان؛ لكنّها خيراتٌ استودعناها النبيُّ غذاءً له نكهةُ الأرض وطعمُ الخبز المجبول بعرق الجبين؛ بذلك كشف لنا عن هويّته النبويّة المثالية والفريدة. في الواقع، لقد التزم أشعيا، وهو رَجُلُ الهيكل والعبادة والصلاة والمخافة، حياةَ شعبه ومعاناته، وعاش قضاياه السياسيّة كما الدينيّة، ووقف إلى جانب البائس الذي كان يكبّله القهر والألم، ووبّخ المسؤول الفاقد الإيمان واللّب، فبشّر ذاك بالخلاص وعزّاه وشجّعه، ووبّخ هذا وقرّعه وهدّده بالعقاب وتوعّده. إنه حقًّا "صوت صارخ"، صوت "كسيف ذي حدّين"، يدوّي في حنايا المظلومين فيبعث فيهم الرجاء، وفي آذان المتسلّطين القهّارين، فيرتعدون و"يرتجفون كورقة الشجر أمام الريح"!

من التصلّب إلى التعقل فالتعافي

مرّات عدّة ندّد أشعيا بقسوة ببني إسرائيل، على الأخص لدى مَن أُولُوا الرئاسة في شعب الله. فلقد ورد موضوع التصلّب في أش ٦، عندما دعا الله النبيّ للقيام برسالته، وتواصل الكلام عليه، كما في أش ٢٩، مثلاً، حيث تورد عدّة آيات (٩-١٤) الوجه المرعب لتصميم الله:

"تَوَانَوا وَابْهَتُوا، تعامَوا وَاعْمَوا. قد سكروا وليس من الخمر، وتَرَنّحوا وليس من المُسْكِر،

فإنّ الربّ قد سكب عليكم روح سُباتٍ، وأغمض عيون الأنبياء منكم، وحَجَبَ رؤوس الرائين...

هاءَنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجبًا عجابًا، فحكمة حكمائه تضمحل، وعقل عقلائه يفنى".

نتبيّن من هذه الأقوال أن الله سيسكب على الأنبياء والرائين في إسرائيل "روح سبات" (٢٩: ١٠)، جاعلاً إياهم "سكارى ومترنّحين" (آ ٩). كذلك الأمر بالنسبة إلى الشعب، إذ يجدّد شجبه له، لأنّ تديّنه هو بالكلام وحسب، وبوصايا بشرية تلقّنونها ولم يعملوا إلا بظواهرها، وبالتالي لا علاقة لكل هذا بالقلب المحب الذي يريده له. لهذا يبقى وَحي الله صامتًا وموصَدًا ككتاب مختوم (أش ٢٩: ١١-١٢).

مع هذا ترفد الكلمةَ النبويةَ جرعاتٌ من الأمل والرجاء؛ فالله لا يلغي تصميمَه الخلاصي بسبب خطيئة شعبه أو خطيئة المسؤولين فيه، بل يواصل تحقيقه، وهذا ما تبثّه الصور المتنوعة التي يدرجها النبي أشعيا في أماكن عدّة من كتابه، حيث يُعَفّر اللهُ بقيةَ الأبرارِ القليلةَ، فقراءِ القلب الذين سيُسَرّون بخلاصه. هنا وهناك تُنعش الآمال المسيحانية الرجاء؛ هكذا هو الأمر بالنسبة إلى "حجر مختار، رأس زاوية، كريم، أساس..." (٢٨: ١٦) الذي يضعه الله في صهيون، وإلى "الملك في بهائه" (٣٣: ١٧ي).

مرات عدة تنقلب علامات التصلب، كما يشهد على ذلك أش ٣٥، حيث يتكلم النص على "طريق مقدسة" ستُفتَح للشعب المقدس الذي يتقدّم باتجاه صهيون، والذي حُرّر من الضنى والغمّ. هكذا يتمّ التبشير بعودة المنفيين، الذين "يبلغون صهيون وهم يهتفون فرحًا" (٣٥: ١٠)، والماء يتدفق في الصحراء ومنها. سيأتي الله ليخلّص خاصّته. ومن خلال الكلام على تعافي العُمي، والصمّ، والعرج" من سُقْمِهم، يتكلم النبي على انتهاء زمن التصلب، وعلى انطلاق زمن التعقّل والطاعة، والعبادة والدعوة باسم الرب.

هكذا، طبع أشعيا التيار النبوي بأصوليته التي هي قَبَسٌ عن إيمانه وأمانته، وبفنّه الأدبي الذي هو صدَى لبراعته وفرادته.

أشعيا يرسم الطريق المؤدّي إلى الرب

وتبقى لنا من هذا الوجه القديم، ولكن الجديد أبدًا، صورةُ الطريق الروحيّ الذي رَسَمه لبني قومه، ومن خلالهم لكلّ مَن يؤمن، فإذا بنبوءته عامودًا غمامٍ ونورٍ نهتدي بهما في لياليا الكالحة وفي نهاراتنا الضَبابيّة إلى حيث هو كنزنا الذي إليه مشدودٌ قلبنا. نبوءاته تجعل المؤمن يدرك أنه "ليس من العالم"، وإنْ "في قلب العالم". هو لا ينزعه من عالم الواقع ليرمي به في عالم الخيال، بل يجعله يسمو إلى العلى، وهو على ترابيّته التي بها صاغه الخالق القدوّس. هنا تكمن فرادة أشعيا، صاحب الكتاب النبويّ الأطول، والنبوءة الأكثر تنوّعًا، أدبًا ومضمونًا.

مفسّر أشعيا هو نبيّ عصره

لذلك، لا يغيب عن بالنا كم أنّ دراسة نصوصه، وتحليلَها، واستخراجَ مضامينها وموضوعاتها، هي في غالب الأحيان أمور معقّدة ومُضنية؛ ولكنّ هذا لا يزيد مُحِبَّ الله إلاّ تصميمًا على "وضع اليد على المحراث"، إيمانًا منه بأن الصبر الذي هو فضيلة الزارع بامتياز، ينشئ الثمار الطيبة والمحيية. لذا، يشكّل تفسير أشعيا عملاً علميًا وروحيًا وراعويًا مميّزًا، يبعث في كيان الفاعل أجمل المشاعر وأسماها، وكأني بالمفسّر هو أشعيا عصره !